المحاضرة09: تجربة ولد عبد الرحمان كاكي المسرحية

تمهيد:

يمثل المسرح الحديث في الجزائر كتاب مسرحيون من أمثال كاكي ولد عبد الرحمن الذي كتب مجموعة من المسرحيات القيمة، وعبد القادر علولة، وعبد الحليم رايس، ومصطفى كاتب... وغيرهم، ممن جعلوا الانطلاقة المسرحية في الجزائر بعد الاستقلال تتميز بطفرة في الإنتاج، وتنوع في المواضيع والقضايا المطروحة، وكانت تجربة ولد عبد الرحمن كاكي تجربة متفردة بتعاملها مع التراث الشعبي، أو الاقتباس من أعمال غيره عرب كانوا أم غربيين وصياغتها بلغة شعبية خفيفة تأخذ هيكل مسرحياته.

أولا - لمحة إلى حياة ولد عبد الرحمن كاكي.

ولد عبد الرحمن كاكي أحد الفنانين البارزين في المسرح الجزائري، ولد يوم 18 فيفري 1934م بمستغانم بالغرب الجزائري، التحق بالكشافة الجزائرية منذ نعومة أظافره، مما جعله يهتم بالنشاط الثقافي وبالمسرح خاصة انضم إلى جمعية "السعيدية" التي كانت تجمع عددا من الفنانين الموهوبين أمثال: سي عبد الرحمن الجيلالي، ثم التحق بفرقة "الصائم الحاج" بسيدي بلعباس حيث تعرف على عبد القادر علولة، وفي سنة 1956م أسس كاكي فرقة "القاراقوز"، ثم اشتغل بعد الاستقلال بالمسرح الوطني بمدينة وهران.

يجمع "كاكي" في رحلته المسرحية بين التأليف والتمثيل والإخراج، ويبدو عليه ضعف واضح في النطق بالعربية الفصحى، وذلك باعتراف منه، بأنه يجهل القراءة والكتابة، كما يصرح بأنه يكتب مسرحياته عن طريق رسم الكلمات العامية الجزائرية بأحرف لاتينية، تعرض لحادث سيارة سنة 1968م أقعده عن العمل، فأصبح عاجزا عن الاستمرار في العمل الفني مكتفيا بالإشراف الفني والإداري على المسرح الجهوي بوهران، إلى أن وافته المنية يوم 14 نوفمبر 1995م،[i] ومع هذا فقد ترك إرثا مسرحيا يفتح للدارس كثيرا من التساؤلات والآفاق البحثية، ومنها: مسرحية 132 المؤلفة سنة 1962م، مسرحية "ديوان الكاراكوز" المؤلفة سنة 1964م، و"كل واحد وحكمو" المؤلفة سنة 1966م، وبني كلبون، وشعب الظلمة، وإفريقيا قبل العام واحد، والقراب والصالحين، وديوان الملاح، وما قبل المسرح، والشيوخ...إلخ.

ثانيا - خصوصية التجربة المسرحية لكاكي.

اتبع المسرحيون في الجزائر نهج المسرحيين العرب في تقليدهم المسرح الأوروبي والتأليف على منواله دون بحث أو دراسة أو تدقيق، وذلك مرده إلى الظروف القاسية التي يعيشها المسرحيون في الجزائر، سواء المتعلقة بالضغوط الاستعمارية أو التحولات الاجتماعية التي لم تحقق الاستقرار للشعب الجزائري الذي كان يصارع على مدى قرن وثلث القرن قوات الاحتلال الفرنسي.

وعلى مدى مسيرة المسرح الجزائري، فقد كان يعتمد على أسلوبين، الأسلوب الشعبي الدارج والأسلوب الفصيح، ولقد حقق الأسلوبان غايات جليلة في الأوساط الاجتماعية، وعلى مستويات عريضة،[ii] وارتبط المسرح التراثي الشعبي باسم مسرحي حاول من خلال أبحاثه وإنتاجه المسرحي، أن ينتج مسرحا عربيا أصيلا متميزا ومتفردا عن المسرح الغربي الأوروبي، وهو ولد عبد الرحمن كاكي الذي اعتمدت تجربته المسرحية على التعامل مع التراث الشعبي، إذ يرى فيه التجربة الحقيقية التي يجب إحياؤها من جديد.

وتعود اهتمامات "كاكي" بالتراث إلى السنوات الأولى من حياته، حين كان يدرس المسرح على يد أستاذ فرنسي له هو "هنري كوردو Hirniy Kordo* ضمن فرقة لهواة المسرح، أنشأها سنة 1943 هذا الأستاذ بمستغانم، والذي كان يدفع تلاميذه للبحث في التراث بقوله: «اذهبوا إلى شعبكم وخذوا عنه الفن الصحيح، ليس لدي كفرنسي ما أعطيه لكم سوى التقنية، أما الفن الجزائري فهو بينكم»[iii].

وبذلك كان التوجه إلى التراث الشعبي والاهتمام به، من خلال توظيف القصص والخرافات والأحاجي والأغاني الشعبية والأسطورة، فانطلق «مع فرقته نحو الشعب الجزائري يدرس أحواله، ويسجل الأساطير والأغاني والأهازيج الشعبية... فجمع منذ البداية عددا من الموشحات، وتعلم الرقصات، وسجل الأشعار... عاش مع الفلاح في الحقل، ومع العامل في المصنع، ومع الصياد في البحر، ومع التاجر في الدكان»[iv].

وهذا الاهتمام بالتراث والتوجه إليه من قبل أستاذ ولد عبد الرحمن كاكي جعله ينشغل بموضوعاته الفنية التي تثري اللعبة المسرحية، وخاصة من ناحية الفرجة، حيث تحول اهتمامه إلى الأساليب والعناصر المكونة لهذا التراث، كالحلقة والمداح، والغناء والرقص، بعدما كان يهتم بالموضوعات الاجتماعية لأنه أدرك أهمية هذه العناصر في إثارة المتلقي ولفت انتباهه وكسر أفق توقعه على كثير من المدلولات التي كانت مغيبة عنه.

لذلك انطوت تجربته المسرحية على الاستمرار في البحث في التراث الشعبي للتعمق في جوهر الشخصية الوطنية القومية، وهذه نظرة تأصيلية للمسرح الجزائري العربي، وهي نظرة ثاقبة حول دور الفن في المجتمع،[v] وأثمرت هذه التجربة عدة مسرحيات تغوص في أعماق الطبقة الشعبية، ومنها:

1- مسرحية 132 سنة.

هذه المسرحية قريبة من المسرح الوثائقي التسجيلي، حيث تناولت أحداثا تاريخية حقيقية، وتتلخص أحداثها في قصة الشعب الجزائري مع الاستعمار الفرنسي، وتدور فكرتها حول نظرة الأسرة الجزائرية، بعاداتها وتقاليدها وشخصيتها الحضارية إلى هذا الاستعمار، بمعنى أن موضوعها يتعلق بالكفاح ضد الاستعمار، و «تطرح الصراع ضد الهيمنة الأجنبية»[vi].

وجاءت المسرحية في مشاهد ولوحات قصيرة، وفي قوالب مختلفة، منها ما هو شعر شعبي ملحون، ومنها ما هو كلام شعبي مرصع بالحكم والأمثال، ومنها ما هو رقص معبر أو غناء، وكل ذلك ليعبر عن لوحات تاريخية لهذه القصة الشعبية الوطنية، التي تصور وقائع لصراع الشعب الجزائري مع الاستدمار الفرنسي منذ 1830م إلى سنة 1962م.

لم تكن المسرحية سردا وقائعيا للأحداث بموضوعاتها، وإنما جاءت على شكل فلاشات ضوئية لما مر من أحداث في الفترة المذكورة، وهي ومضات إيحائية مجردة، توحي بالرمز للحدث لتعيد ذكراه، إشارة تنبه فكر المتفرج، وتشد انتباهه، وذلك باستعمال طرق ووسائل خاصة مساعدة في الكتابة المسرحية، فالنص لا يهتم بالشخصية أو البطل[vii]، يقدر ما يركز على العرض السينوغرافي لإحداث مسافة توتر مع المشاهد، الذي يسجل حيادية البطل عند العرض.

فالشخصية الرئيسية في المسرحية وهي "الدرويش" يقيم العرض ويحركه كيفما يشاء، دون أن يتحدث عن نفسه أو يشير إليها، ليكون بذلك صوت الكاتب المسرحي نفسه أو روحه أو ضميره، وهذه التقنية يمارسها ولد عبد الرحمن كاكي في مسرحيته الأخرى "إفريقيا قبل واحد" حين يطرح الهيمنة الأجنبية في إفريقيا عموما.

2- مسرحية ديوان الكاراكوز.

اقتبس ولد عبد الرحمن كاكي مسرحيته هذه عن مسرحية الطائر الأخضر لكارلو قوزي Karlo Goss، والتي أخذها بدوره عن ألف ليلة وليلة مربزاد صاحبة الابتسامة الوردية والطائر المتكلم، وفي هذا يقول المؤلف نفسه «لقد خلقت ديوان الكاراكوز خلقا أي أن المسرحية ليست مترجمة، ولكنها مستوحاة من مسرحية "الطائر الأخضر"، لأنني عمدت إلى تحويل الشخصيات إلى "كراكيز" يندمجون مع مسرح "الكاراكوز" ليقدموا شيئا جديدا مناسبا للبيئة التي أفرزت هذا العمل الفني، والذي اعتز به من حيث أصالته وعلاقته بالمجتمع الجزائري بثقافته وعاداته وتقاليده العامة.»[viii].

والمسرحية جاءت في قسمين، يضم القسم الأول منها مقدمة وسبع لوحات حيث نتعرف في المقدمة على الشخصيات التي تقوم بأدوارها في المسرحية، ويقوم قدور مع مجموعة من الممثلين بمساعدة معلم في تقديم مسرحية (الطائر الأخضر للكاتب الإيطالي (كارلو كوزيه)، وتبدأ اللعبة (الكاراكوزية) بلغتها الشعبية المتميزة وحركاتها الخفيفة المعبرة التي تقوم بها الشخصيات.

وفي القسم الثاني تدخل الجماعة المتكونة من الممثلين ويقرأون أشعارا شعبية تعبر عن أحلام وطموحات الفقراء والمحتاجين، وهكذا تتم الحكاية الخرافية المملوءة بالخوارق والمفاجآت داخل عوالم بعيدة عن الواقع، تحركها أرواح أسطورية شعبية، مملوءة بالأهازيج والقصائد الشعبية والرقصات والأنغام السحرية التي تذهب بالعقول وتنعش الألباب.[ix]

ومما يسجل على هذه المسرحية غرابة شخصياتها، لأن أسماءها أقرب إلى الخيال، وتحمل رموزا ذات دلالات شعبية نحو: بريغلة، وسروال بلا قاع، وقليل الدين، وشنة العين، ونينات زينة لعوينات، والطائر الأخضر، والري، والسوطة، والقراط، والجماعة الأولى، وجماعة التمثيل، والتمثال*... وغيرها، ثم إن غرابتها لا تنتهي عند هذا الحد وإنما يتكون ذلك في حركاتها وحوارها أيضا، والمسرحية في عمومها تعكس استلهام "كاكي" للتراث الشعبي الجزائري وتوظيفه في نصوصه المسرحية.

3- مسرحية القراب والصالحين.

تعد تجربة الكاتب والمخرج المسرحي ولد عبد الرحمن كاكي تجربة جديرة بالاهتمام، لأنها تجاوزت حد الاقتباس بإعادة النظر في الهيكل الكلي للمسرحي، وإعادة كتابتها من جديد حتى تظهر وكأنها مسرحيات جزائرية شكلا ومضمونا[x]، وتجسد هذه التجربة مسرحية ديوان الكاراكوز ومسرحية القراب والصالحين التي عرضت في شهر أفريل من عام 1966م، وتناولت ظاهرة القراب التي انتشرت بكثرة في وقت ما، وعلاقة ذلك بأولياء الله الصالحين، ولقد سعى الكاتب من خلالها إلى إدخال تجديد في المسرح الجزائري من خلال القوال، وإضفاء الجو الشعبي على العرض، هادفا بذلك إلى توظيف "الاحتفالية" في المسرح الجزائري، والاحتفالية مظهر فرجوي شاع في المسرح البريختي.

وفي هذا الصدد يقول سعيد أردش: إن كاكي أقرب إلى بريخت والحكواتية العرب منه إلى "فيرمان حيميه" صاحب نظرية المسرح الشعبي[xi]، كما قال عنه مخلوف بوكروح:«لقد لعب ولد عبد الرحمن كاكي دورا رائعا في الحركة المسرحية الجزائرية بأعماله ذات الطابع الخاص والمتميز باستلهامه للأساطير الشعبية لمعالجة قضايا اجتماعية»[xii]، وعليه فإن الكاتب المسرحي وظف "القوال" لإضفاء الطابع الشعبي على مسرحيته وشد انتباه الجمهور الذي يتجاوب كثيرا مع تراثه ومأثور أجداده وإرثهم وثقافتهم.

4- مسرحية كل واحد وحكمو.

وهي قصة واقعية جرت أحداثها في مدينة مستغانم، تحكي قصة شعبية تناولتها الروايات منذ مئة سنة، حيث خلدتها الذاكرة الشعبية في أغاني وقصائد الشعر الملحون، وتدور أحداثها حول الفتاة "جوهر" التي حاول أهلها تزويجها بشيخ يكبرها سنا، ومتزوج بثلاث نساء، وله اثنا عشرة ولدا، مما يضطر "جوهر" إلى الانتحار مقابل هذا الزواج حفاظا على حبها لشاب آخر، فترمي بنفسها في البحر، لكن الأرواح من جنس العفاريت تنقدها وتعتني بها بعيدا عن أهلها إلى أن يموت الرجل الذي يريد الزواج منها.[xiii]

والحقيقة أن الأسلوب الشعبي المتبع في كتابة المسرحية هو بؤرة التجديد فيها، حيث أغطى نفسا جديدا للكتابة المسرحية الجزائرية، وبالتالي الاقتراب مما ألفه الناس في حياتهم اليومية من طقوس شعبية وأغاني ورقصات ومواويل، ومسرحية «كل واحد وحكمو الشعبية الأسطورية من هذا النوع الفني الساخر»[xiv].